وأنْ يحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنّة من سُنَن المعاندين للحق والكائدين للخير دائماً ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

أى : تذكّروا أن الحسد قديم قِدمَ وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهى مسألة قديمة ومستمرة فى البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذى يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً فى دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخَّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعةٍ وخضوعٍ لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التى تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم فى موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون فى قَوْل الحق سبحانه فى القرآن الذى أخذوا منه حجتهم : ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح فى أنه من الجن ، فإنْ قال قائل : كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبِلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة(١) الذى يزهو عليهم ويتباهى

---

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٨٩) .

بأنه صالح للاختيار فى العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح فى منزلة أعلى من الملائكة وأصبح فى حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى فى الطاعة فإن الأعلى أوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلَّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التى أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أَبَى ﴾ ومرة أخرى ﴿ استكبَرَ ﴾ ومرة ﴿ أَبَى واستكبر ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] ، ومرة أخرى يقول : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فَهْم أساليب العربية ؛ لأنها ليستْ لديهم ملكة ، والمتأمل فى هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآنى ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] و ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

صحيح أن فى الأولى إثباتاً وفى الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول: إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) فى الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حروف زائدة فى كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزِّه المتكلم سبحانه أن يكون فى كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هى تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] كأنه همَّ أنْ يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أىّ شىء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك بأنك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن فى حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف فى عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة فى الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التى لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ، ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي توقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطيء .

ومعنى : ﴿خَلَقْتَ طِيناً (٦١)﴾ [الإسراء] يعني : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق ؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩)﴾ [الحجر] سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء . ومرة : من التراب . ومرة : من طين . والماء إذا خُلِط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف في صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشِّ ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطَن ، ثم يصبُّونه في قوالب . فإذا ما تُرِك الطين حتى يجفَّ ، ويتحول إلى الصلابة يصير صلْصالاً كالفخَّار ، يعني يُحدث رنَّة إذا طرقت عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

إذن : لا وَجْه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان

مرة أنه : من : ماء ، أو من تراب ، أو طين ، أو حمأ مسنون ، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أى : إبليس ﴿أرأيتكَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما فى الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك . والمعنى : أخبرنى ، لأن رأى البصرية تُطلق فى القرآن على معنى العلم ؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شكّ فيه .

لذلك قالوا : (ليس مع العين أيْن) فما تراه أمامك عياناً ، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرؤية ؛ لأنها تعطى علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً ، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل وليداً لم يرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « ترَ » كأنه يقول للرسول ﷺ : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فاجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .

---

(١) الاحتناك : الاستيلاء والاحتواء والإضلال . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٥) : « المعنى متقارب ، أى : لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال ولأجتاحنهم » .

فقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]
أى : أعلمنى ، لماذا فضلته علىَّ ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذى توجه به لربِّه عزَّ وجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب .

ومعنى : ﴿ أَخَّرْتَنِ ﴾ أخَّرت أجلى عن موعده ، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس مَنفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً ، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله ، وهذه مبالغة منه فى اللدد والعناد ، فلم يتوعدهم ويُهدِّدهم مدة حياته هو ، بل إلى يوم القيامة ، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً .

فالعداوة بين إبليس وآدم ، فما ذنب ذريته من بعده ؟ لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد ، وهذه العداوة على آدم ، ثم يوصى ذريته بحمل هذا العداء من بعده . إنه الغيظ الدفين الذى يملأ قلبه .

وقد أمهله الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء] اللام للقسم ، كما أقسم فى آية أخرى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص]

وعجيب أمر إبليس ، يقسم بالله وهو يعلم أن العمر والأجل بيده سبحانه ، فيسأله أن يُؤخِّره ، ومع ذلك لا يطيع أمره .

والاحتناك : يَرِد بمعنيين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أى : أتى عليه كله واستأصله ، والآخر : بمعنى القهر على التصرف ، مأخوذ من اللجام الذى يُوضَع فى حنك الفرس ، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجِّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقفه ، فهى أداة التحكّم فيه ، والسيطرة عليه قَهْراً .

فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات ، وقد يكون قهراً لحركتها .

وقوله سبحانه : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء] فيها دليل على عِلْم إبليس ومعرفته بقدرة الله تعالى ، فعرف كيف يقسم به حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] والمعنى : بعزتك عن خَلْقك : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف] .

سأدخل من هذا الباب ، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لى بهم ، وليس لى عليهم سلطان ، لقد تذكّر قدرة الله ، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذَه ، فقال : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فقوله : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم ، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣)﴾

قوله تعالى (اذْهبْ) أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ .. ۝٦٣ ﴾ [الإسراء] أى : الذين اتبعوك وساروا فى ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ جَزَاؤُكم ﴾ . ولم يَقُلْ (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل فى حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم ، وكذلك هو المخاطب فى الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفّذ أوامر الله الواردة فى قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ۝٦٤ ﴾ [الإسراء]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها ؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذى يُراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذى لا يُراد منه التنفيذ . فالأول طَلَب أعلى من أدنى لكى يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوب عادةً من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتمّ ولا يستجيب فتقول له : العب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر ؟! وهل لو أخفق الولد فى الامتحان سيأتى ليقول لك : يا والدى لقد قلت لى العب ؟!

إن الأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره ، بل يُراد منه التهديد ، كما يقولون فى المثل (أعلى ما فى خَيْلك اركبه) .

وقوله : (جَزَاءً مَّوْفُورًا) أى : وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ (١) وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنهُم بِصَوْتِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء]

هذا كما تستنهض ولدك الذى تكاسل ، وتقول له : فِزّ يعنى انهض ، وقُمْ من الأرض التى تلازمها وكأنها مُمسكة بك ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة]

فتقول للمتثاقل عن القيام : فِزّ أى : قُمْ وخِفّ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفزز مَن استطعت واستخفّهم واخدعهم (بِصَوْتِكَ) بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يعاونونك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) قوم رجْلة أى رجّالة . والرجال : جمع راجل أى ماش . والراجل خلاف الفارس . [لسان العرب ـ مادة : رجل] والمقصود . أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

أجْلَبَ عليه : صاح به ، وأجلبَ على الجواد : صاح به راكبه ليسرع. والجلْبة هى : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبه الجلْبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فيسهلُ عليك التغلّب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم ، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان ، كما فى الحديث النبوى الشريف : « يا خيل الله اركبى »[1] .

وما أشبه هذا بما كنا نُسمّيهم : سلاح الفرسان (ورَجِلك) من قولهم : جاء راجلاً . يعنى : ماشياً على رِجلَيْه و (رَجِل) يعنى على سبيل الاستمرار ، وكأن هذا عمله وديدنه ، فهى تدل على الصفة الملازمة ، تقول : فلانٌ رَجِلٌ أى : دائماً يسير مُترجّلاً . مثل : حاذر وحَذِرٌ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركهم أموالهم ؟ بأن يُزيِّن لهم المال الحرام ، فيكتسبوا

(١) أورده العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/٥٣١) ، وقال : « رواه أبو الشيخ فى الناسخ والمنسوخ عن عبد الكريم قال : حدثنى سعيد بن جبير عن قصة المحاربين ، قال : كان ناس أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : نبايعك على الإسلام ، فذكر القصة ، وفيها فأمر النبى ﷺ فنودى فى الناس : ياخيل الله اركبى ، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً » . وقال ابن حجر فى الفتح (٧/٤١٣) : « روى ابن عائذ من مرسل قتادة قال : « بعث رسول الله ﷺ منادياً ينادى ، فنادى : يا خيل الله اركبى » .

من الحـرام وينفـقوا فـى الحرام (وَالأَوْلادِ) المـفـروض فى الأولاد طهـارة الأنســاب ، فدَوْر الشـيطان أنْ يُفـسِـدَ على الناس أنسـابهم ، ويُزيِّن لهم الزنا ، فـيأتون بأولاد مـن الحرام . أو : يُزيِّن لهم تهـويد الأولاد ، أو تنصيرهـم ، أو يُغريهم بقتْل الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان فى الأولاد .

وقوله تعالى ﴿ وعدْهُمْ ﴾ أى : مَنِّيهـم بأمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أى : لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغِرَّة والغفلة ، ومنها الغرور : أى يُزيِّن لك الباطل فى صورة الحق فـيقولون : غَرَّهُ . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوِّر لإنســان الباطل فى صورة الحق إلا إذا كان عقله قـاصراً غافلاً ؛ لأنه لو عـقل وانتبه لتبـيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره ، وعلى غَفْلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يُخـاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] ﴿ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ [الأنعام] ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ .. (٨٢) ﴾ [النساء] ويناديـنا بقوله : ﴿ يَـٰأُوْلِي الأَلْبَابِ .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحثٌّ على استعماله فى كل أمورنا ، فإذا سمـعتم شيئاً فـمرِّروه على عقولكم أولاً ، فمـا معنى أن يطلب الله منَّا ذلك ؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبُّر فى كل شىء ؟

لا شكَّ أن الذى يُوقِظ فيك آلة الفكر والنقد التمـييز ، ويدعوك إلى

النظر والتدبر واثق من حُسْن بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذى يبيع الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته فى ثقة ، ويدعوك إلى فحصها ، وقد يشعل النار ليُريك جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر .

وهكذا الشيطان لا يُمنِّيك ولا يُزيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ، إنما لو كنت متيقظاً له ومُستصحباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً ، ومن حيله أنْ يُزيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها فرصة للمتعة فانتهزها وَخذْ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن تُصدِّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصدِّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإنْ كان يوم القيامة تبرّأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فى الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ، استفزز ، وأجلب ، وشاركهم ، وعِدْهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها ، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف فى وجه الدعوة ،

(١) المُصْرِخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

أو صَدّ الناس عنها ، وكان الحق سبحانه يقول له : إفعل ما تريد ودبِّر ما تشاء ، فلن توقف دعوة الله ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) ﴾

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ، وقلنا كلاماً نُوجزه فى أن العبيد هم المقهورون للسيد فى الأمور القَسْرية القهرية ، ومتمردون عليه فى الأمور الاختيارية ، أما العباد فهم مقهورون فى الأمور القسرية القهرية ، وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم فى الأمور الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أنْ يكونوا مقهورين لله فى جميع أحوالهم .

وقد تحدَّث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) ﴾ [الفرقان]

فعباد الله الذين هم أصفياؤه وأحباؤه الذين خرجوا من مرادهم لمراده ، وفَضَّلوا أن يكونوا مقهورين لربهم حتى فى الاختيار ، فاستحقوا هذه الحصانة الإلهية فى مواجهة كيد الشيطان ووسوسته وغروره : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ.. (٦٥) ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كَيْد الشيطان الذى قال الله عنه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء] ففى مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الذين أغواهم وأضلّهم ، سيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] فليس لى سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ [الإسراء]

الوكيل هو المؤيِّد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً . أى : وثقت به ليؤدى لى كل ما أريد ، فإنْ كان فى البشر مَنْ تثق به ، وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل ؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي[1] لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) ﴾

الربّ هو المتولِّى تربيتك : خَلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء : الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الْفُلْك ﴾ هى السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكّر والمؤنث .

---

(١) زجا الشىء : تيسّر واستقام . وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة]

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾﴾ [النحل]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت ، ومُستودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله ، فالذى أعطاكم البَرَّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التى نعيش عليها إما بَرّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس ، فالباقى بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير .

وطُرُق السير فى اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشى أو تركب ، وكُلٌّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شىء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحى من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قبله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود]

فلم يكُنْ للناس عَهْد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له علْم بهذه المسألة ، فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبى من أنبيائه إلى مركب من المراكب التى تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مَرِّ العصور ، فبعد أنْ كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يُسمَّى بالقلْع ، والذى يتحكم فى المركب من خلاله ، ويستطيع الربّان الماهر تسفيح القلع ، يعنى توجيهه إلى الناحية التى يريدها .

فكان الريح هو الأصل فى سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمى الذى اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مَرِّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتى تشبه فعلاً الجبال ، مصْداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى]

يعنى : كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على

---

(١) الأعلام : الجبال . والعلَم : الجبل الطويل . [لسان العرب ـ مادة : علم] .